الكرامة تحت أقدام الحرب

عيب والله، فتاة مثلك تتسكع هنا و هناك للتسول ، ابحثي لك عن عمل شريف تربحين منه لقمة نظيفة ، ألا تخجلين من نفسك ؟؟
- صدقيني يا سيدتي ، أنا اعمل ممرضة في مستشفى الشفاء و أحاول دائما زيادة ساعات عملي للحصول على مزيد من الاجور الاضافية لكن راتبي يكاد يكفي إيجار البيت و المصروف .. كل ما أحاول جمعه الآن ثمن تذكرة لأسافر إلى بيروت .. إن أخي يحتضر ... إصابته بالغة كما حدثتك..

- اعتدنا هذه الحكايات ... لم تعد تهز مشاعرنا ... كل يوم و آخر .. يأتي أحد ليخبرنا حكاية مشابهة ... لا تتوقعي مني ما يساعدك ... ما هذا ؟! لو فتحنا أبوابنا لأمثالك لما أغلقناها طوال النهار !
- ليبعد الله عنك هذه اللحظات يا سيدتي ... معك حق .. أولاد الحرام لم يتركوا شيئا لأولاد الحلال .. أشكرك على كل حال ..

لن ألقي باللوم عليها ... لطالما رددتُ أنا المتسولين و أغلقت الباب دونهم ... و نصحتهم بالعمل الشريف الذي ينقذ الكرامة ... لطالما استأت من هذه العادة ... و لم يكن ليمر في خاطري أن الأيام و الظروف ستضطرني لقرع الأبواب ... ترددت كثيرا ... و ما زلت .. لكني لم أجد حلا ، كل طرقة باب خنجر أدفنه عميقا في صدري لأحصل على بضعة دراهم قد تساعدني على جمع ثمن تذكرة السفر .. كل خطوة أتقدمها في هذه البنايات الشاهقة .. المرتفعة الإيجار شوكة تدمي قلبي فتسيل الدماء على وجنتي دموعا حارقة و أتساءل ماذا أفعل ؟؟ ..
و ماذا بيدي أن أفعل .. هل أبيع نفسي ... هل أبيع جسدي ؟ أم أتناسى أخي المرمي على قطعة قماش لا يمكن أن يسمى فراشا في ركن من أركان مبنى كبير لو أطلقنا عليه اسم مستشفى لكان تجنيا منا على عالم الطب والاستشفاء ... أتناسى الجرح الذي مزق أحشاءه فخلف منه جسدا يتنفس بحاجة إلى جبل من الأدوية و المعالجة و لا يخفى على أحد أن هذا يكلف جبلا من الهموم و النقود ... ماذا أفعل ؟ ... أهتم بمرضى كثر و لا أستطيع حتى إعطاء شربة ماء لأخي ؟؟

قالوا لي : إنهم يتكفلون بكل شيء ... الدواء و الطعام ... لكن العلاج عندهم له أساليبه و إمكانياته تحدها الأوضاع الأمنية .. فكما كان صاروخ غاشم سبب إصابته .. صواريخ أخرى عديدة قد تكون سبب عدم معالجته ، قالوا لي: فإذا أردت له الشفاء الأكيد أرسلي في طلبه ... أُرسل في طلبه ؟؟ يوم كان صحيحا معافى يهد الجبال لم يستطع الخروج من أتون النار ... الآن ؟؟
لأحاول مجددا .

- صباح الخير .
- صباح النور نعم ؟ سيدتي ليست هنا..
و أغلق الباب .
لم أضطر للتنفس لا للكلام .. لسرد القصة من أولها إلى آخرها .. كل مرة يفتح الباب ... أنسى وجودي فلا أكون إلا آلة تسجيل تسرد المأساة ... تستدرُّ الشفقة .. علها تضيف إلى الدراهم دراهما ... أنسى عزة النفس التي ربتني عليها أمي (رحمها الله) ... أنسى الرضا الذي زرعه والدي في نفسي (رحمه الله) لم نكن يوما من الأغنياء ... لكن القناعة كانت كنزنا الأكبر ... و دوما كنا سعداء ... هي الحرب اللعينة التي غيرت أحوال الجميع ... و كنا ضحاياها الأبرياء يوم وجد والدي العمل خارجا فرحنا لأننا سنخرج من الجحيم .. اعتقدنا أن لأمور ستسير كأفضل ما كان ... يوم فرحنا ذاك كان بداية مشاكل من نوع آخر ... فقد تعذب والدي كثيرا و لم يستطيع إلحاقنا به ... فبقينا .. إلا أن نقوده كانت تنقذنا من الذل ... كانت قليلة لكنها تسد الرمق ..

- صباح الخير يا سيدتي .
- صباح النور .. نعم ؟
- أتمنى ألا يصيبك مكروه مع عائلتك كلها .. يا سيدتي أنا اعمل و أرسل القسم الأكبر من راتبي لعلاج أخي المصاب منذ ستة أشهر في بيروت .. إصابته بالغة جدا .. جعلت منه جسداً مقعداً .. و زاد عليه بطء العلاج لأسباب كثيرة لا تخفى على أحد ... و لكن يبدو أنه الآن يحتضر ...
- و ماذا تريدينني أن أفعل ؟

- أطمع في كرمك يا سيدتي ... فأنا لا أملك ثمن تذكرة السفر ... و أخي قد يموت في أية لحظة ... و ليس له في بيروت من يدفنه لو مات (لا سمح الله) ...
- مهلا ... مهلا... لا تبكي ... لا ينقصني النواح و البكاء .. تكفيني مشاكلي ...
- عفوا يا سيدتي ... يكفيني ما يجود به كرمك علي ...

معك حق أن تغلقي الباب ... فلطالما خفت مثلك أن يكون المتسول سارقا ... لا بأس ازدادت الدراهم في جيبي ... ليرزقك الله أيتها السيدة الكريمة ... و لكن كيف طاوعني لساني و قلت تلك الجملة ... (ليس له من يدفنه لو مات) .. ذلك فأل سيء ... هل كل ما في وجداني الآن جمع المال.. صحيح أن المال ملك يستعبد الإنسان ويذله، أخي قد يموت ؟؟ هل صار الموت عندي شبه طبيعي ؟؟ يوم نهش المرض جسد أمي في بيروت و ماتت كنت أواجه الموت للمرة الأولى ، بكيت و بكيت يومها أصاب الشلل فمي أياماً ... فقدت السيطرة على أعصابي أسابيع .. كانت المواجهة الأولى و فقدان أعز الناس لم ترتضي أمي أن تخبر والدي باستفحال مرضها ... كانت تقول يكفيه همه و تعبه ليؤمن لنا لقمة العيش و هو بعيد عنا ... من أين له أن يدفع ثمن علاجي ... لا يموت الإنسان إلا في ساعته ... و بقيت وحيدة مع إخوتي ...

- يبدو أن لا أحد في هذه الدار لأنتقل إلى أخرى .
- من يقرع الباب ؟ ماذا تريدين ...
- .... !!!!

- من هدى ؟
- خالتي أم سامر ؟
- تفضلي يا هدى ... لا تبكي ... ماذا تفعلين هنا تفضلي ؟ كيف عرفت عنواننا ؟
- .....
- تمالكي نفسك ما بك يا هدى ... أخبريني عن أحوالك ؟
- أنت يا خالتي ما الذي أتى بك إلى هنا ؟
- هنا بيت سمر ... ألم تعرفي أنها تزوجت و هذا بيتها ؟ إذن ألست آتية إليها ؟
- آه يا خالتي ماذا أقول لك ؟... أين سمر و كيف أحوالها ؟
- لا بأس الحمد لله ... زوجها رجل طيب صحيح أنه كبير في السن لكنه يحبها و يدللها كثيرا وقد وافق على بقائها في عملها... و أيضا أصر على أن أسكن معهم ... ماذا نريد أكثر من ذلك يا أبنتي ... الحمد لله على الستر .. لكنها لم تنجب حتى الآن ... تعمل المستحيل الله كريم ..
- نعم الله كريم ... ليرزقها مراد قلبها ..

- و أنت يا هدى ما بك .. صحتك لا تبدو على ما يرام .. لباسك ؟ ما الأمر ... و ما الذي أتى بك إلى هنا ؟
- هل تصدقين يا خالتي لو قلت لك أنني أطرق الأبواب للصدقة ؟
- ماذا ؟ هل تمزحين ؟ لا تبكي أخبريني ؟

- أخي !! منذ ستة أشهر مصاب و أنا أرسل له نصف راتبي ليعتني به خالي ... منذ يومين أخبروني أنه يحتضر و لا أمل في شفائه .. اشتهيت رؤيته ... تمنيت أن أذهب إليه أن أكون بجانبه ..
- و أين أصيب ؟
- لا أدري بالضبط ... فنحن لا نسمع أخبارهم إلا موجزة و مقتضبة... و كل من يأتي من هناك لا يعرف التفاصيل ... لم يعد أحد يسأل عن أحد ... و كما تعلمين ليس باستطاعتي دفع الكثير على المخابرات الهاتفية .. لم أجد حلا آخر .. طرقت أبواباً كثيرة أستدين المبلغ ... جميعهم يعلمون بحالي لذلك لم يقبلوا إقراضي لأنهم على يقين بأنني لن أستطيع الوفاء ... أحدهم وافق و لكنه وضع لي شروطا دنيئة ... فاخترت أن أطرق الأبواب و أطلب الصدقة على أن أبيع نفسي...

- ووالدك يا هدى ؟ ألم يفعل شيئا ؟
- مسكين والدي يا خالتي... رحمه الله ... لقد مات منذ ثلاث سنوات و بعد التحاقنا به بعدة أشهر .. قهره ضغطه المرتفع .. لم يتحمل كثيرا موت والدتي ..
- رحمها الله و أسكنها فسيح جناته .. كانت زينة الستات ... و لكن الجميع قال أن مجيئكم إليه سيحسن من أحواله و قالوا أيضاً أن الرجل الذي يعمل عنده ساعدكم كثيرا.

- نعم فلولاه ما استطعنا المجيء إلى هنا ... للحقيقة أنه رجل رائع حنون ... لقد ساعدني للحصول على عملي كممرضة في المستشفى و ألحق أخي الأصغر في المدرسة ..و سيحصل هذا العام على الثانوية العامة .
- و أين تقيمون ؟
- أنا أقيم في سكن الممرضات في المستشفى .. و أخي يقيم في سكن الخدم التابع لمنزل السيد خالد .
- لماذا لم تذهبي إليه ليساعدك ؟
- إنه مسافر مع عائلته ... و لا أحد في البيت سوى الخدم .
- سآتيك ببعض الطعام .. يبدو عليك الإرهاق .. كأنك لم تنامي منذ دهر ..
- البارحة كان دوامي في الليل ... و منذ ساعات الصباح الأولى و أنا كما ترين بعضهم يفتح لي بابه و بعضهم يغلقه في وجهي .. لقد جمعت حتى الآن منذ البارحة مقدار نصف ثمن التذكرة الحمد لله .
- أعتذر يا ابنتي ... ليس باستطاعتي تقديم المساعدة ... سمر ستعود من عملها ظهرا ما رأيك أن ترتاحي حتى تعود و ستساعدك بدون شك .
- هل تعود مع زوجها أم تسبقه ؟
- يمر عليها في عملها و يعودان معا ...

- إذن لن يكون الوقت مناسبا .. سأذهب الآن يا خالتي .. وسأعود بعد الظهر .. ألن أسبب متاعب لسمر ؟
- ستساعدك قدر استطاعتها ... لا يمكنني أن أعدك بأي شيء يا ابنتي...
- هل تمانعين أن أتصل هاتفيا و أعرف متى تريدني أن أحضر ..
- لا بأس ... ذلك أفضل .
- إذن استودعك الله ... شكراً جزيلا .
- مع السلامة يا ابنتي ... ليوفقك الله و يجعل في طريقك أولاد الحلال و يشفي أخاك .
- شكرا يا خالتي ... مع السلامة .
- مع السلامة ..

هل أكمل دورتي ؟ أم أعود ؟ ما زال ينقصني الكثير ... هل بإمكان سمر مساعدتي ببقية ثمن التذكرة .. قد يكون زوجها بخيلا .. لكنها تعمل .. لا يهم .. قد تساعدني و لكن علي أن أجمع المزيد ...
أذكر أيام المدرسة كانت سمر صديقة رائعة لكننا لم نتقابل منذ زمن بعيد ... فرقتنا الأيام ... تراها تغيرت ؟ مهما تغيرت ستحدثها والدتها عن وضعي ... ستساعدني بالتأكيد ... هو أمر مخجل لكنني مضطرة عليَّ أن أسافر غدا

... يا رب ساعدني ... أرشدني ماذا أفعل ؟
وتطرق باباً آخر
- صباح الخير سيدتي ..
- نعم ماذا تريدين ؟؟
و أعيد القصة من أولها ... أحس بالقهر ... كل مرة أطرق بابا أحس بالذل .. لا بأس الأيام قد تمحو القهر و الذل و لكن هل تعيد إليَّ أخي ؟؟
لم أكن أتوقع أن أجمع هذا المبلغ .. حين كنت أقرأ في الصحف أنهم يجدون مع المتسولين مبالغ كبيرة لم أكن لأصدق ... قد يكون الربح معقولا .. و لكن كيف يمكنهم أن يبقوا العمر كله دون طموح ... دون عمل مثمر ... كيف يمكنهم أن يتخذوا من الاهانة سبيلا و من التذلل طريقة لجمع المال ... تلك حالة لا إنسانية .. مهما كان العمل بسيطا .. إلا أنه يمنح الإنسان شعوراً بالرضا و التقدير الشخصي ... لكن المجتمع لا يرحم .. الحاجة تدفع الإنسان إلى فعل أي شيء ..
يدوس على قيمه ... على كرامته ... و أنا خير مثال على ذلك ... اليوم استطعت المحافظة على قيمي و أخلاقي ... لكني بنيت حاجزا حجريا طمس كرامتي و أنساني إياها ... تراهم يفقدون الشعور بالكرامة أمام الفاقة ...؟؟ و بعد ... أين سأصل ؟؟ يبدو أن الأمور تختلط في ذهني .. سأعود الآن ... و يكفي ما جمعت ...

لا ... ذلك أمر متعب ... لن أكرره مطلقا ... جمعت مبلغا لا بأس به ... لكن الثمن غالٍ ... أغلى مما كنت أتوقع .. لماذا يحكم علي القدر بذلك ؟؟ ما ذنبي ... لأشقى بأخوين و أدفع من كرامتي وتعبي ثمنا باهظا لأقدم لهما أقل ما يمكن ؟؟ يا رب سامحني .. الدموع تغلبني .. ترى كيف هو أخي ؟؟ هل سألحق به ؟ هل سأراه يتعافى .. أم سيبقى أسير الفراش و الأدوية و سأبقى أسيرة العمل الشاق غير المثمر ...؟؟

(و لكثرة التعب تسهو العين في غفوة عميقة اضطرارية)
- هدى ... هدى ... أسرعي مطلوبة على الهاتف ...

- نعم ؟؟
- هدى استيقظي ... أسرعي مكالمة هاتفية لك ..
- سآتي بسرعة ... لحظة ... هل هي من بيروت ؟؟
- لا أعرف ... كانت المشرفة تتكلم وطلبت مني أن أدعوك بسرعة ... ربما كانت المكالمة من بيروت ... تبدو مهمة .
- الله يستر ... خير إن شاء الله ... ادعي لي يا سها ..
- أخبار حلوة إن شاء الله ...
- تعالي يا هدى ... لقد انقطع الخط ... سيتصل خالك مرة أخرى بالتأكيد ...
- ماذا قال لك ... أرجوك أخبريني ..
- يبدو أن الأمور لا تسير على خير ما يرام ..
- إذن ... قولي ... هل مات أخي ... ؟؟
- تمالكي نفسك ... لا أعرف ... سيكلمك الآن بدون شك ... لأنه أصر على ذلك ..
- و ما الذي قاله لك ...
- لا تبك يا هدى ... تمالكي ... ها هو الهاتف يرن .. لا بد أنه لك ...
- ألو خالي ... طمئني كيف أحوالكم ... لماذا الأحوال لا تطمئن ؟ ماذا تقول ؟ في القسم الذي تعرض للقصف ؟ ... هل هذا معقول ... لا تصيب الشظية إلاّ هو ... ثم لا يقصف من المستشفى إلاّ القسم الذي ينام فيه ؟و أين هو الآن ؟ ماذا ؟ غير معروف ؟ قل ... إذن قلها ... لقد مات ... قلها ... لماذا تخاف ؟؟ مات إذن .. سأحضر غدا لدفنه ... يجب أن أراه قبل أن يوارى الثرى ... لا تهتم للنقود سأتدبر الأمر ... ماذا ؟؟ ... لا ... غير معقول ؟؟ ... غير معقول ؟؟..
و البكاء الدواء يغسل و يغسل ما في القلب و الروح ...
- ماذا قال يا هدى ... اهدئي ... هل ستذهبين غدا ؟؟
- كلا !! ... كلا ... لقد مات أخي و دفن في قبر جماعي مع القتلى ضحايا القصف لأنهم لم يستطيعوا استبيان كل واحد منهم ... غير معقول .
- ابكي يا هدى ... لا تضحكي ... ابكي فالبكاء دواء ..
- دواء لأي جرح .. الجروح بليغة و عريضة ... فأيها أبكي ؟ و أيها أداوي ؟ ... هل تسمحين لي باستعمال الهاتف.
- بالطبع ..
- ألو ... أم سامر ... أنا أتصل لأقول ..
- يا هدى يا عزيزتي ... سامحيني ... و اعذريني ... سمر ليس باستطاعتها مقابلتك اليوم ... عندها موعد مع صديقاتها لشرب الشاي ... و غدا كذلك ... لكنها تركت لك معي مبلغا متواضعا أرجو أن تمري لأخذه ....
- شكرا يا خالتي ... شكرا لم أعد بحاجة إليه ..
- لماذا ؟ هل قدم لك أحدهم تذكرة ... ما بك ... هل تبكين أم تضحكين ؟
- لا ... لا عليك ... فأنا لم أعد أعرف حتى ... هل أضحك من الدنيا ... أم أبكي على نفسي ....

هناء كرم